ISSN: 2321-7928

الإجابة على استفسار عن جملة في "أمثال آصف الحكيم"

- د. محمد أجمل أيوب الإصلاحي[1]

ترجمة من الأردوية: د. محمد معتصم الأعظمي[2]

وردت في الحكاية السابعة "حكاية النمل والجندب" من كتاب "أمثال آصف الحكيم" جملة نصّها: "قالوا: لمَ لا جمعتَ الطعام في الصيف؟". نلاحظ في هذه الجملة دخول "لا" على الفعل الماضي بدلًا من "ما". قبل فترة طويلة، سألني أحد أصدقائي الأفاضل: "هل هذه الجملة صحيحة وفق قواعد اللغة العربية؟" في ذلك الحين، أجبتُه بناءً على الذوق اللغوي والقياس فحسب، دون استحضار الشواهد العلمية، لاحقًا وأثناء القراءة والمطالعة، مررتُ بنظائر متعددة أكدت وصحّحت ذلك الجواب، مما أتاح لي فرصة رؤية المسألة في سياق أوسع، ومن أجل إثراء معرفة طلبة اللغة العربية، أقدّم في الصفحات التالية دراسة تاريخية وفنية لهذا التركيب.

غالبًا ما تدخل "لا" النافية على الفعل الماضي في ثلاث حالات:

أولًا: أن يكون الفعل الماضي بمعنى الدعاء خيرًا أو شرًّا، نحو: "لا قدّر الله". ويقول النابغة الذبياني مخاطبًا النعمان بن المنذر:

مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّئٍ مِمَّا أَتيتَ بِهِ إِذًا فَلا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي[3]

[1] كاتب ومحقّق هندي له "محاسن الشعر" (جزءان) و"مفردات القرآن" و"مقالات وبحوث".

[2] نائب مدير تحرير المجلة ومدرس، كلية سيوري فيديا ساغر، بنغال الغربية، الهند

[3] ديوانه، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، 1977م، ص 25

ويقول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَصُونُ عِرْضِي بِمَالِي لا أُدَنِّسُهُ لا بَارَكَ اللهُ بَعْدَ العِرْضِ بِالمَالِ[1]

ثانيًا: أن يقع الفعل الماضي في جواب القسم ويكون بمعنى المستقبل: نحو: "والله لا فعلتُه". ويقول المؤمل بن أميل المحاربي:

يَكْفِي المُحِبِّينَ فِي الدُّنْيَا عَذَابُهُمُ تَاللهِ لا عَذَّبَتْهُمْ بَعْدَهَا سَقَرُ[2]

ففي كلتا الصورتين المذكورتين أعلاه، يكون الفعل الماضي بمعنى المستقبل، وبناء على ذلك يقول علماء النحو: إنّ "لا" النافية التي تختصّ أصلًا بالمضارع تدخل في هاتين الصورتين على الماضي أيضًا، ولكن يشيع دخول "لا" على الماضي في صورة ثالثة، يظلّ فيها الماضي على مفهومه الحقيقي أي للزمن الماضي، وذلك إذا تقدّمه ماضٍ منفي سواءً كان ماضيًا منفيًا بـ"ما" أو مضارعًا منفيًا بـ"لم"، نحو: "ما قرأتُ ولا كتبتُ" أو "لم أقرأ ولا كتبتُ"، وإذا لم يكنْ كذلك فيأتي بعده فعل ماضٍ واحد أو أكثر مقرونًا بـ"لا" النافية كقوله تعالى: "فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى" (القيامة: 31). وكذلك ما جاء في حديث صحيح مسلم: "كَيْفَ أَغْرَمُ مَنْ لَا شَرِبَ وَلَا أَكَلَ وَلَا نَطَقَ وَلَا اسْتَهَلَّ؟".[3]

ولا شكّ فيها ولا خلاف في هذه الصور الثلاث وقد شاع استعمالها في اللغة العربية ولا سيما الصورتين، الأولى والثالثة، لكنّ السؤال هو: هل يجوز نفي الفعل الماضي الذي هو ماضٍ لفظًا وتقديرًا بـ"لا" النافية؟".

ويتبادر من أسلوب بعض المتقدمين أنّه لا مانع من ذلك، ففي تفسير آية سورة القيامة المذكورة آنفًا حيث تكرّرت "لا"، أنّ "لا" هنا بمعنى "لم"، واستدلّوا بأشعار

[1] ديوانه، تحقيق: وليد عرفات، دار صادر، بيروت، 1974م، ص 314

[2] الأغاني، دار الثقافة، بيروت، 1981م، 263/22

[3] شرح صحيح مسلم، كتاب القسامة، باب دية الجنين، رقم الحديث: 36/1681

وردت فيها "لا" مرّة واحدة فقط دون نفي سابق أو لاحق، وممّن ذهب إلى ذلك: أبو عبيدة (210هـ)،[1] وابن قتيبة (276هـ)،[2] وصاحب كتاب "الأزهية" (القرن الرابع الهجري)،[3] وابن عطية (542هـ)،[4] وقد كتب القرطبي (671هـ) أنّ الأخفش (215هـ) قد مثّل لقوله "فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ" بقوله "فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ" بقوله "فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ"، ولم يشترط مجيء شيء آخر بعده (أي نفي ثانٍ). وتقول العرب: "لا ذهبَ" أي "لم يذهبْ"، وعليه فكما تنفي الاستقبال بحروف النفي، فكذلك تنفى الماضي أيضًا.[5]

والواقع أنّ الأخفش في "معاني القرآن" قد مثّل لآية سورة البلد بآية سورة القيامة ولم يفرّق بينهما،[6] إلّا أنه كتب في تفسير سورة القيامة :"أي فلم يصدق ولم يصلِّ، كما تقول: ذهب فـ"لا جاءني ولا جاءك"،[7] أما ما نقله القرطبي لاحقًا من قول العرب، فلا يُعلم هل هو من بيانه الشخصي، أم هو جزء من قول الأخفش نقله من مصدر آخر.

وتذهب جماعة أخرى من العلماء إلى أنّ نفي الفعل الماضي بـ"لا" النافية يكون أفصح إذا كان مع التكرار، فقد جاء في كتاب "العين"- وهو أول معجم في اللغة العربية- أنّ "لا" في قوله تعالى: "فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ" هي بمعنى "لم"، وكذلك الأمر في قوله: "فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ"، إلّا أنّ "لا" بهذا المعنى إذا كُرّرت أفصح مما إذا لم تُكرّر، ثم استشهد ببيت شعري وردت فيه "لا" مرة واحدة فقط،[8] وقد ذكر الفرّاء (ت 702هـ)

[1] يراجع: مجاز القرآن، تحقيق: محمد فؤاد سزكين، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1401هـ، 278/2

[2] تأويل مشكل القرآن، تحقيق: السيد أحمد صقر، مكتبة دار التراث، القاهرة، 1393هـ، ص 548

[3] كتاب الأزهية في علم الحروف: علي محمد النحوي الهروي، تحقيق: عبد المعين الملّوحي، مجمع اللغة العربية بدمشق، 1401هـ، ص 157-158

[4] المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ، 406/5-407

[5] الجامع لأحكام القرآن، دار الكتب العلمية، بيروت، 1408هـ، 14/19

[6] معاني القرآن، تحقيق: فائز فارس، الكويت، 1401هـ، ص 538

[7] المصدر نفسه، ص 518

[8] كتاب العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، بغداد، 1985م، 350/8

النحوي الكوفي الشهير: "العرب لا تكاد تفرد (لا) مع الفعل الماضي في مثل هذا الموضع، حتى يعيدوها في كلام آخر"،[1] وعلى المنوال نفسه، كتب الزجاج (ت 311هـ) في تفسير سورة البلد: "ولم يذكر (لا) إلا مرّة واحدة، وقلما تتكلم العرب في مثل هذا المكان إلا بلا مرتين أو أكثر،" ثم استطرد قائلًا: "لا تكاد تقول: لا حييتني، تريد ما حيَّتني، فإن قلتَ: لا حييتني ولا زرتني صلح"،[2] كما كتب ابن الشجري (ت ٥٤٢هـ) "وأجودُ ما يجيئ ذلك مكررًا".[3]

إذا كان تكرار "لا" هو الأفصح، فلماذا وردت مفردة في قوله تعالى :"فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ"؟ ولماذا عدل القرآن عن الأفصح والأغلب إلى الفصيح والقليل؟ أجاب الزجاج عن ذلك وقال إنّ "لا" وإن لم تتكرر ولكنها مقدَّرة في المعنى ولو صُرِّح به لكان الكلام: "فلا اقتحم العقبة ولا آمن"، وأمّا ا الفرّاء، فيرى أنه (فكّ رقبة، وإطعام، وإيمان)، "ففسّر ذلك بأشياء ثلاثة، فكان كأنه في أوّل الكلام قال: "فلا فعل ذا، ولا ذا، ولا ذا"، وقد نقل الإمام الطبري (ت 310هـ) قول الفرّاء هذا دون عزوه إليه، ثم نقل رأي ابن زيد (ت 182هـ) أنّ "لا" في هذا المكان بمعنى: "أفلا"، وإذا قُبِلَ ذلك فلا تبقى حاجة إلى افتراض محذوف في الكلام،[4] وأمّا أبو حيان الأندلسي (ت 745هـ)، فقد نقل قول الزجاج ثمّ كتب "وقيل: هو جار مجرى الدعاء، ... وقيل هو تحضيض بـ(ألا)، ثم انتقد قائلًا: ولا نعرف أنّ (لا) وحدها تكون للتحضيض وليس معها الهمزة"،[5] ولعلّ قول الدعاء كان ضعيفًا لذلك لم ير أبو حيان ضرورة للرد عليه.

[1] معاني القرآن، تحقيق: محمد علي النجّار وأحمد يوسف نجاتي، عالم الكتب، بيروت، 1403هـ، 264/3
[2] معاني القرآن وإعرابه، تحقيق: عبد الجليل عبده الشلبي، عالم الكتب، بيروت، 1408هـ، 329/5
[3] أمالي ابن الشجري، تحقيق: محمود الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1413هـ، 324/2
[4] تفسير الطبري، دار الفكر، بيروت، 1408هـ، 202/30
[5] البحر المحيط، دار الفكر، بيروت، 1412هـ، 482/10

وليس غرضنا هنا مناقشة الآية لذاتها، وإنما نودّ التنبيه إلى أنّ هذه الآية هي التي أوجدت فرصة البحث في هذا الموضوع لدى النحاة والمفسّرين؛ فقد جعلت طائفة منهم آيتي سورتي "القيامة" و"البلد" نظيرتين لبعضهما وذهبوا إلى أنّ "لا" بمعنى "لم" دون إشارة إلى شرط أو قيد، بينما رأت طائفة أخرى أنّ نفي الماضي بـ"لا" يكون أفصح وأحسن إذا جاء مع التكرار واستشهدوا على وروده مرةً واحدةً في سورة البلد وما شابهها من الشواهد، وقد ذهب بعض هؤلاء إلى اعتبار النفي في آية سورة البلد مكررًا من الناحية المعنوية، وكأنّ ذلك لا يخالف الاستعمال الشائع في اللغة.

وقد وضع ابن هشام (ت 761هـ) في "مغني اللبيب" قاعدة مفادها: "فإن كان ما بعدها جملة اسمية صدرها معرفة أو نكرة لم تعمل فيها، فعلًا ماضيًا لفظًا وتقديرًا، وجب تكرارها". وأما الأبيات التي فيها "لا" على الماضي دون تكرار فقد شذّها ابن هشام.[1]

وبعد دراسة أقوال العلماء وشواهد المسألة، خلص الباحث إلى أنّ القاعدة الأصلية هي ما قرّره ابن هشام (وإن لم يكن كلامه منضبطًا تمامًا) والتي ذكرناها في الصورة الثالثة، أي أنّ استعمال "لا قرأت" بدلًا من "لم أقرأ" أو "ما قرأت" ليس صحيحًا في الأصل، ومع ذلك، فإنّ شواهد دخول "لا" النافية على الماضي دون تكرار موجودة بكثرة في كلام الشعراء والأدباء والعلماء منذ العصر الجاهلي حتى القرن الثامن الهجري، وغالبًا ما يأتي هذا الاستعمال في سياق خاصّ لا يستثقله الذوق الأدبي، ولذلك سنجد أنّ ابن هشام نفسه- الذي أوجب التكرار- قد خالف هذه القاعدة، فلننظر أوّلًا في الشواهد التي أوردناها هنا وفق الترتيب التاريخي:

1- وقال الأعشى- الشاعر الجاهلي الشهير- يمدح إياس بن قبيصة الطائي:

أيَّ نارِ الحربِ لا أوقدها حطبًا جزلًا فأورى وقدح[2]

[1] مغني اللبيب، دار الفكر، بيروت، 1979م، ص 319-321

[2] ديوان الأعشى الكبير، تحقيق: محمد محمد حسين،مؤسسة الرسالة، بيروت، ص 291

2- وقال شاعر شهاب بن العنيف العبدي يهجو الحارث بن جبلة الغسّاني:

وكان في جاراته لا عهد له فأي أمر سيء لا فعله[1]

وأمّا أبو حيان التوحيدي (ت 414هـ) الذي يعدّ أعظم ناثر في اللغة العربية بعد الجاحظ (ت 255هـ) فقد نقل في كتابه "أخلاق الوزيرين" جملًا للختعمي الكاتب في حق الصاحب بن عباد (ت385هـ) ومما جاء فيها: "فَأَيُّ عَيْبٍ لَمْ يَظْهَرْ بِهِ وَلَمْ يَغْلِبْ عَلَيْهِ؟ ... وَأَيُّ فِعْلٍ سَيِّءٍ لَا فَعَلَهُ"،[2] ويبدو جليًا أنّ الجملة الأخيرة في هذه العبارة مقتبسة من رجز شهاب العبدي المذكور آنفًا؛ ومن ثمّ يمكن اعتبار استعمالها في القرن الرابع الهجري شاهدًا مستقلّا.

3- وقال طرفة بن العبد وهو من شعراء المعلقات الجاهليين:

وأي خميس لا أفأنا نهابه وأسيافنا يقطرن من كبشه دما[3]

4- وما جاء في سنن الترمذي عن عباس- رضي الله عليهما- في تفسير قوله تعالى: "الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم" (النجم: 32)، قال: قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

"إن تغفر اللهم تغفر جمًّا وأيّ عبد لك لا ألمّا"[4]

ويذكر الشارحون أنّ هذا الرجز لأمية بن أبي الصلت، وقد جرى على لسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم مجرى المثل، وقد مات أميّة في عهد النبي صلّى الله

[1] أمالي ابن الشجري، 323/2، شرح أبيات المغني لعبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد العزيز رباح وأحمد يوسف دقّاق، دار المأمون للتراث، بيروت، 1393هـ، 395/4

[2] أخلاق الوزيرين: أبو حيان التوحيدي، تحقيق: محمد تاويت الطبخي مجمع اللغة دمشق، 1385هـ، ص 168

[3] مجاز القرآن: 278/2، تأويل مشكل القرآن، ص 548

[4] تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي: الإمام الحافظ أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتب العلمية، بيروت 1410هـ، 122/9-123

عليه وسلّم على كفره، وكان قد أنشد هذا الرجز قبل وفاته.[1]

وينسب بعضهم هذا الرجز إلى أبي خراش الهذلي، وقال الأصمعي: أخبرنا ابن أبي طرفة الهذلي قال: قال أبو خراش، وهو يسعى بين الصفا والمروة ويرتجز،[2] وأبو خراش شاعر مخضرم، أدركه الشيب عند بعثة النبي صلّى الله عليه وسلّم، والغالب أنه أسلم بعد غزوة حنين.

ونقل الإمام الطبري في تفسيره: وكان أهل الجاهلية يطوفون بالبيت ويقولون: "إن تغفر اللهم....."[3] وإن صحّ هذا الخبر، فإنه يدلّ على أنّ هذا الرجز لشاعر جاهلي قديم، وقد صار بمنزلة المثل السائر، لذا جرى على لسان الرسول صلّى الله عليه وسلّم، وورد عند أمية وأبي خراش على هذا النحو.[4]

5- عمر بن أحمر الباهلي شاعر مخضرم، توفي نحو سنة 65هـ في عهد عبد الملك بن مروان،[5] وله بيت قال فيه:

وجُردٍ يعْلَه الدّاعي إليها متى ركب الفوارس أو متى لا

تقديره: أو متى لا ركبوا.[6]

6- ولّى عبد الله بن الزبير أخاه مصعب بن الزبير على العراق، وفي سنة 71هـ هزمه جيش عبد الملك بن مروان وقتل مصعب في تلك المعركة، كما قتل معه

[1] انظر لنسبة الرجز إلى أمية بن أبي الصلت: كتاب العين: 350/8، طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلاّم بن عبيد الله الجمحي، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، 1974م، 252/1

[2] شرح شواهد المغني لعبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 635

[3] تفسير الطبري، 67/27

[4] شرح أبيات مغني اللبيب، 400/4

[5] الأعلام للزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، 1984م، 72/5

[6] أمالي ابن الشجري، 218/1

صديقه الوفيّ يحيى بن مبشّر اليربوعيّ، فرثاه أبو السفّاح بُكير بن معدان اليربوعي بقصيدة يقول في أحد أبياتها:

من يك لا ساء فقد ساءني ترك أبينيك إلى غير راع[1]

7- وكتب ابن المقفّع (106هـ-142هـ) في كتابه "كليلة ودمنة" في "باب إيلاذ وبلاذ وإيراخت" مخاطبًا الملك إيلاذ: "لم لا تأنّيت وتثبّتّ؟".[2]

8- عبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي (ت 182هـ): وهو من تبع التابعين والمفسّرين، نقل عنه الطبريّ في تفسير سورة البلد قوله: "أَفَلَا سَلَكَ الطَّرِيقَ الَّتِي مِنْهَا النَّجَاةُ وَالْخَيْرُ؟".[3]

9- الإمام أبو الحسن الأشعري (260-324هـ): في مناظرته الشهيرة مع أستاذه المعتزليّ أبي عليّ الجُبّائي (235هـ-303هـ) حول مسألة "الأصلح" نُقلت عنه هذه الجملة "لِمَ لَا أَحْيَا الطِّفْلَ لِيُعَرِّضَهُ لِأَعْلَى الْمَرَاتِبِ؟".[4]

10- أبو الطيب المتنبّي (ت354هـ) الشاعر العربي الشهير: يقول في إحدى قصائده

يَطَأْنَ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا حَمَلْتُهُ وَمَنْ قَصَدَ الْمُرَّانُ مَا لَا يُقَوَّمُ[5]

---

[1] وورد في المفضليات اسم الشاعر السفاح بن بكير اسم المقتول يحيى بن شدّاد بن ثعلبة، ويراجع شرح اختيارات المفضّل للخطيب التبريزى، تحقيق: فخرالدين قباده، مجمع اللغة بدمشق، 1971م-1972م، ص 1365
وقد ذكر الجاحظ في "كتاب الحيوان" (تحقيق: عبد السلام هارون، 263/4) أنّ أبا السفّاح رثى أخاه يحيى بن عميرة، ولمّا كانت هذه القصة تتعلّق بآل الزبير، فقد اعتمدنا على رواية مؤرّخهم الزبير بن بكّار (ت 256هـ)، يراجع: الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، عالم الكتب، بيروت، 1416هـ، ص 433

[2] كليلة ودمنة، المكتبة الثقافية، بيروت، ص 256، ومما تجدر الإشارة إليه أنّ العبارة في الطبعة التي حقّقها الدكتور عبد الوهّاب عزّام ترد بلفظ مختلف.

[3] تفسير الطبري، 202/30

[4] سير أعلام النبلاء لشمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1404هـ، 89/15

[5] شرح ديوان المتنبي للبرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت، 1407هـ، 71/4، وقد ذكر البرقوقي: "وقوله "من لا حملنه" اراد "ما حملنه"، لأنّ "لا" لا تدخل على الماضي إلا مكرّرة في الأصل، ولكنّه أبدلها فرارًا من نقل اللفظ.

11- ابن الصيرفي (463-542) كان كاتبًا بارزًا في العصر الفاطميّ، وله مجموعة رسائل مطبوعة باسم "الأفضليات"، ذكر فيها شاعرًا من شعراء بلاط الوزير الفاطميّ الأفضل أحمد بن بدر الجمالي (ت515هـ) قائلًا: لِأَنَّهُ أَدْرَكَهَا بِنَظَرِهِ، وَلَا أَجَالَ فِيهَا حَاسَّةَ بَصَرِهِ".[1]

12- أبو سعيد محمد بن عبد الرحمن المسعودي (522هـ-584هـ): كان أستاذًا لابن السلطان صلاح الدين الأيّوبي وله شرح على مقامات الحريري لا يزال مخطوطًا، وقد نقل عنه أبو العبّاس الشريشي (ت 619هـ) في شرحه المبسوط هذه العبارة عن المسألة السريجية: "السُّرَيْجِيَّةُ مَنْسُوبَةٌ إِلَى الْإِمَامِ أَبِي الْعَبَّاسِ أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ بْنِ سُرَيْجٍ، إِمَامِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَمَنْ لَا نَفِسَتْ ذَاتُ دُرٍّ بِمِثْلِهِ فِي الْآفَاقِ".[2]

يُلاحظ هنا أنه لم يكن ثمة مانعٌ من قول "لم تنفس".

13- جمال الدين القفطي (ت 646هـ) الوزير الشهير في العهد الأيوبي وهو كان أديبًا ونحويًا ومنشئًا وشاعرًا، يقول في كتابه "إنباه الرواة على أنباه النحاة" في ترجمة أبي عبد الله الأزدي: "وَلَقَدِ اقْتَنَيْتُ بِخَطِّهِ كِتَابَ الْأَمْثَالِ لِأَبِي عُبَيْدٍ، فَرَأَيْتُ مِنَ الْإِتْقَانِ وَالتَّحْقِيقِ مَا لَا شَاهَدْتُهُ لِغَيْرِهِ".[3]

وهنا أيضًا، كان بالإمكان قول "ما لم أشاهده "بلا تكلّف.

14- شيخ الإسلام ابن تيمية (661هـ-728هـ) كتب في "مجموع الفتاوى": فَإِذَا قِيلَ: فَلِمَ لَا خَلَقَهَا عَلَى غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ؟".[4]

---

[1] الأفضليات، تحقيق: عبد العزيز المانع ووليد القصاب، مجمع اللغة العربية، دمشق، 1402هـ، ص 117

[2] شرح مقامات الحريري، تحقيق: محمد أبو المفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 1418هـ، 425/1

[3] أنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق: محمد أبو المفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، 1406هـ، 134/2

[4] مجموع فتاوى شيخ الإسلام، رتبه: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، دار عالم الكتب، الرياض، 1412هـ، 213/8

15- وفي موضع آخر من "الفتاوى" أيضًا: "فَلِمَ لَا قَالَ: وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْحُرُّ؟".[1]

16- وفي كتاب آخر للإمام ابن تيمية أيضًا: "فَلِمَ لَا جَوَّزْتُمْ أَنْ تَكُونَ الْإِرَادَةُ وَالْقُدْرَةُ وَالْعِلْمُ وَبَاقِي الصِّفَاتِ رَاجِعَةً إِلَى مَعْنًى وَاحِدٍ؟".[2]

17- وفي نفس الكتاب في موضع آخر: "وَلِمَ لَا كَانَتِ الْهُيُولَى غَيْرَ هَذِهِ بِحَيْثُ تَقْبَلُ شَكْلًا أَكْبَرَ مِنْ هَذَا؟".[3]

18- ورد في موضع آخر من هذا الكتاب: "فَلِمَ لَا كُنْتُمْ أَوْلَى بِالْكُفْرِ وَالتَّشْبِيهِ مِنْهُمْ إِذْ زَعَمْتُمْ...؟ ".[4]

19- ومن عبارات كتاب آخر للإمام الموصوف نفسه: "فَإِنْ قَالُوا: فَإِذَا أَثْبَتُّمْ لِلَّهِ يَدَيْنِ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ فَلِمَ لَا أَثْبَتُّمْ لَهُ أَيْدِيَ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِينَا؟ قِيلَ لَهُ...".[5]

20- وجاء في كتاب "الجواب الصحيح": "فَلِمَ لَا جَعَلْتُمُوهُ كَمَا جَعَلَ نَفْسَهُ؟".[6]

21- وفي كتاب "منهاج السنة"، وهو كتاب الإمام المشهور في الرد على الشيعة، ورد قوله: "فَلِمَ لَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ فِدَاءَ هَذَا الَّذِي دَعَا لِمَحَبَّةِ اللَّهِ لِمَنْ يُحِبُّهُ؟".[7]

22- وفي موضع آخر من الكتاب المذكور: "فَلِمَ لَا قَاتَلَ النَّاسُ مَعَهُ إِذْ ذَاكَ، وَالْأَمْرُ فِي أَوَّلِهِ؟".[8]

---

[1] المصدر نفسه: 80/14

[2] درء تعارض العقل والنقل، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، الرياض، 1403هـ، 117/4

[3] المصدر نفسه، 271/4

[4] المصدر نفسه، 195/4

[5] بيان تلبيس الجهمية، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن بن قاسم، مكة المكرمة، 1392هـ، 25/2

[6] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تحقيق: علي حسن ناصر وغيره، دار العاصمة، الرياض، 1414هـ، 166/4

[7] منهاج السنة، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام، الرياض 1406هـ، 48/4

[8] المصدر نفسه، 361/4

23- وجاء في رسالة "ضابط التأويل"، للإمام ابن تيمية وهي من الرسائل التي نُشرت حديثًا: "ثُمَّ ضَرَبُوا لِلْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ أَنْوَاعَ التَّحْرِيفِ وَالتَّبْدِيلِ، وَأَصْنَافَ الْمَجَازِ وَالتَّأْوِيلِ، وَلَا أَبْقَوُا الْعُقُولَ كَمَا فُطِرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْقُولَاتِ وَمَا أَتَى إِلَيْهَا مِنَ الْمَسْمُوعَاتِ، تَارَةً بِدَعْوَى النَّظَرِ الثَّاقِبِ لِلنُّظَّارِ، وَتَارَةً بِدَعْوَى الْوَجْدِ الصَّادِقِ لِلْعَابِدِينَ".[1]

24- ويكتب العلامة ابن قيم الجوزية (691-751هـ)، تلميذ ابن تيمية الشهير، في شرحه لسنن أبي داود: "فَإِنْ قِيلَ: فَلِمَ لَا أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ؟ قِيلَ: هَذَا لَا يَلْزَمُ...".[2]

25- ولابن القيم أيضًا كتاب "بدائع الفوائد"، تحتوي مجلداته الأولى على مباحث نحوية، جُلها مقتبس من كتاب "نتائج الفكر" لأبي القاسم السهيلي (508-581هـ)، مع إضافات واستدراكات لابن القيم في بعض المواضع، وقد ورد في سياق بحث "أنّ" في هذا الكتاب قوله: "فَانْ قِيلَ: وَلِمَ لَا جَعَلُوا لِأَنَّ الْمَفْتُوحَةَ صَدْرَ الْكَلَامِ كَمَا جَعَلُوا لِلَيْتَ وَلَعَلَّ؟".[3]

والأمر المثير للاهتمام أنّ عبارة السهيلي في "نتائج الفكر" هي: "فَإِنْ قِيلَ: وَهَلَّا كَانَ لِأَنَّ صَدْرَ الْكَلَامِ...".[4] فبينما التزم السهيلي بالقاعدة النحوية باستعمال "هلا" آثر ابن القيم استبدلها بـ"لِمَ لَا".

26- وفي "بدائع الفوائد" أيضًا مبحث نفيس حول "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، حيث طرح ابن القيم ثمانية وعشرين سؤالًا وأجاب عنها، وأحد هذه الأسئلة جاء بهذا اللفظ: "مَا الْحِكْمَةُ فِي إِضَافَةِ الرَّحْمَةِ وَالْبَرَكَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَتَجْرِيدِ السَّلَامِ عَنْ هَذِهِ الْإِضَافَةِ، وَلِمَ لَا أُضِيفَتْ كُلُّهَا، أَوْ جُرِّدَتْ كُلُّهَا؟".[5]

---

[1] جامع المسائل، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، 1424هـ، 38/5

[2] تهذيب السنن، على حاشية عون المعبود، دار الكتب العلمية بيروت، 1410هـ، 65/7

[3] بدائع الفوائد، تحقيق: علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، 1425هـ، ص 456

[4] نتائج الفكر في النحو، تحقيق: محمد إبراهيم البنا، دار الرياض، 1404هـ، ص 34

[5] بدائع الفوائد

27- ولابن القيم قصيدة مطولة في العقائد (النونية) تبلغ نحو ستة آلاف بيت، ومنها قوله:

هَذَا وَلِمَ لَا جَاءَهُ أَصْحَابُهُ يَشْكُونَ بَأْسَ الْفَاجِرِ الْفَتَّانِ[1]

هَذَا وَلِمَ لَا جَاءَهُ أَصْحَابُهُ

28- يكتب صلاح الدين الصفدي (ت764هـ) الأديب والشاعر الذائع الصيت في القرن الثامن الهجري شرحًا لـ"الرسالة الجدية" للشاعر الأندلسي ابن زيدون (ت 463هـ) الموسم بـ"تمام المتون في شرح رسالة ابن زيدون"، وهو كتاب معروف ومتداول. فينقل فيه بيتين لم يذكر اسم قائلهما:

حُدِّثْتُ عَنْكَ غُصُونَ الْبَانِ فَانْعَطَفَتْ وَمَالَ بِالسَّكْرِ مِنْهَا كُلَّ مَيَّادِ

لَمْ يَبْقَ فِي الرَّكْبِ مَنْ لَا هَزَّهُ طَرَبٌ إِلَى لِقَائِكَ حَتَّى سَرْحَةُ الْوَادِي[2]

29- شهاب الدين ابن أبي حجلة التلمساني (725-776هـ) أديب وشاعر مقدسي وكان أصله من تلمسان واستوطن دمشق، فينقل في كتابه "ديوان الصبابة" بيتًا يقول قائله:

عُوقِبَ قلبي وجَنَى ناظري وربما عُوقِبَ مَن لا جَنَى[3]

30- وكان مقتضى السياق التاريخي أن يرد ذكر النحوي الشهير جمال الدين ابن هشام الأنصاري (708-761هـ) بحسب وفاته قبل الصفدي وبعد ابن القيم، إلا أننا آثرنا أن نختم هذه الشواهد بعبارة له، رغم أنه أوجب تكرار "لا" إذا دخلت على الفعل الماضي إلّا أنه خالف قاعدته بنفسه في كتابه الذي وضعه

[1] الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، تحقيق أيوب هديمي الجزائري، دار المغني، الرياض، 1425هـ، ص 203، رقم الشعر 2848

[2] تمام المتون، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، بدون تاريخ، ص 291

[3] ديوان الصبابة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1999م، ص 71

للمبتدئين في فن النحو، وهو "شرح قطر الندى"، فقد جاء في معرض شرح تعريف "الكلمة"، يقول: "فَإِنْ قُلْتَ: فَلِمَ لَا اشْتَرَطْتَ فِي الْكَلِمَةِ الْوَضْعَ...". [1]

وجدير بالذكر أنّ الشواهد المذكورة أعلاه لم تكن وليدة دراسة منظمة أو استقصاء مقصود، بل هي نتاج مطالعات متفرقة وغير مرتبة في أوقات متباينة، مما يمكن تسميته بـ"القراءة الطليقة"؛ حيث استوقفتني هذه الأمثلة عرضًا. لذا، لا ينبغي الظن بأنّ ما أوردناه من هؤلاء الأعلام أو في تلك الكتب هو كل ما وجد في ذلك العصر حول المسألة محل البحث، فعلى سبيل المثال، لم يكن بين يديّ من فتاوى ابن تيمية إلا مثالان، ولكن أثناء تسويد هذا المقال وتقليب صفحات بعض الكتب عرضت لي ثمانية أمثلة أخرى.

وبالنظر إلى هذه الشواهد من زوايا مختلفة، تتجلّى لنا الحقائق التالية:

1- من الناحية التاريخية، هناك 6 شواهد من العصر الجاهلي والأموي، وهو ما يُعرف بـ"عصر الاحتجاج"، حيث تمثل لغة ذلك العصر معيار الأصالة والصحة والفصاحة، ويُستشهد بكلامهم كحجة ودليل، وهناك 7 شواهد من العصر العباسي، والبقية من القرن الثامن المتصل به.

2- 10 شواهد جاءت في الشعر، والبقية في النثر.

3- أما الشواهد النثرية، فمنها ما هو مأخوذ من كتابات أدباء ونحاة كبار مثل ابن المقفع، وابن الصيرفي، والقفطي، والمسعودي، وابن هشام؛ ومنها ما هو لعلماء فحول كابن زيد، وأبي الحسن الأشعري، وابن تيمية، وابن القيم، وبعضهم كان إمامًا في علوم العربية.

4- أوردنا عشرة أمثلة من كتابات ابن تيمية وحده، وهذا لا يعني- كما أسلفنا- قلة

[1] شرح قطر الندى وبل الصدى، المكتبة العصرية، بيروت، 1422هـ، ص 18

استخدام هذا الأسلوب عند غيره، ولا ينحصر استخدام ابن تيمية في هذه الأمثلة فحسب.

يتبيّن لنا أنّ هناك 21 شاهدًا بما فيها الشواهد الجاهلية دخلت فيها "لا" النافية على الفعل الماضي بعد الاستفهام، بينما جاءت 9 شواهد بلا استفهام، وبالتأمل في شواهد الاستفهامية، نجد المجموعات التالية:

1- (أي الاستفهامية + لا + الفعل الماضي): 4 أمثلة شعرية جاهلية (الأرقام 1-4).

2- (لِمَ + لا + الفعل الماضي): 16 مثالًا نثريًا (الأرقام 9، 14، 22، 24، 27، 30).

3- (همزة الاستفهام + فاء العطف + لا + الفعل الماضي): مثال نثري واحد (رقم 8).

أما مجموعات الشواهد غير الاستفهامية فهي:

1- (مَن أو ما الموصولة + لا + الماضي): 5 أمثلة؛ 3 شعرية و2 نثرية، (الأرقام 10، 12، 13، 28، 29).

2- (بعد "مَن" الشرطية في جملة الشرط): مثال شعري واحد من العصر الأموي (رقم 6).

3- (بعد "متى" الظرفية مع حذف الفعل الماضي): مثال شعري أموي (رقم 5).

4- (واو العطف + لا + الفعل الماضي): مثالان نثريان (11، 23).

يرى شارح الكافيه رضي الدين الإستراباذي (ت 686هـ): "أنه يجب تكرار "لا" لصحة دخوله على الماضي ولكنه يقول إن تكراره ورد في بعض الأبيات من الشعر.[1]

وقد استنتج عبد القادر البغدادي (ت 1093هـ) من قول الرضي أنّ عدم التكرار يختص بالشعر، وحجته في ذلك أنه لا يجوز قول "لا قام زيد" إلا في الدعاء أو القسم،[2] وبالرغم من أن كتاب "ضرائر الشعر" لابن عصفور الإشبيلي (ت 669هـ) يُعدّ من

[1] شرح الكافية، تحقيق: يحيى بشير المصري، جامعة الإمام، الرياض، 1417هـ، 1208/2

[2] خزانة الأدب، تحقيق: عبد السلام هارون، الخانجي، القاهرة، 1403هـ، 89/10-93

أجمع الكتب في الضرورة الشعرية، إلّا أنّه لم يشر إلى هذا التركيب، كما أنّ الشواهد الشعرية فيما أوردناه آنفًا لا تتعدى العشرة، مقابل عشرين شاهدًا نثريًا، علمًا بأنّ الرضي يقصد بشواهده ما كان من "عصر الاحتجاج".

وثمة نقطتان جديرتان بالاعتبار: الأولى: أنّ هذا البحث لا يتناول أسلوبًا قرآنيًا يتوقّف فيه عند "عصر الاحتجاج"، رغم أنّ بعض العلماء- كما ورد في مطلع المقال- جعلوا قوله تعالى في سورة البلد "فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ" مثالًا على هذا الأسلوب. الثانية: أنّ اللغة العربية لغة شعر، وكثيرًا ما تضيق الفجوة فيها بين الشعر والنثر الأدبي؛ فتُستخدم بعض الأساليب التي يُظنّ اختصاصها بالشعر في النثر العربي بلا تكلّف. ومع ذلك، لو حذفنا الشواهد الشعرية من المجموعات المذكورة، ستبقى المجموعات التالية:

1- بعد "لِمَ" (16 مثالًا)، ويُلحق بها مثال واحد بعد همزة الاستفهام.

2- بعد "مَن" أو "ما" الموصولتين (مثالان).

3- بعد "واو العطف" (مثالان).

وكما هو جليّ، فإنّ الأمثلة الواردة بعد "لِمَ" هي الأكثر عددًا والأطول زمنًا، ولا يشعر القارئ أو السامع تجاهها بأي استنكار أو شذوذ. والسؤال هنا: لماذا استُخدم هذا التركيب قليل الاستعمال مع توفر بدائل مثل "ما النافية" أو "لم النافية" بعد "لِمَ"؟

ويظهر أنّ السبب في ذلك هو كراهة تكرار الميم عند إتيان "ما" بعد "لِمَ"، أما عند إتيان "لم" بعدها، فسيجتمع في الكتابة "لِمَ لَمْ"، مما يوجب ضبطهما بالحركات، وإلا فقد يظنه الكاتب مكررًا فيحذف أحدهما، فيختل المعنى المراد.

ولكن عند كاتب هذا المقال هناك سبب نحوي آخر جعل استخدام "لِمَ لا" مع الماضي سائغًا ومألوفًا، وهو قربه المعنوي من "هلّا". فمن المعلوم، إنّ "هلّا" من أدوات التحضيض وتدخل على الماضي والمضارع، وهي في الأصل مركّبة من "هل

+ لا". وهذا الاجتماع بين الاستفهام والنفي هو الذي ولّد معاني التحضيض والتنديم. ولأنّ "هلّا" تُستخدم غالبًا بهذا المعنى، ولأنّ معناها الأصلي (هل لا) تحول إلى (لماذا لا)، فقد كُتبت ككلمة واحدة مستقلة، ولم تُذكر في كتب القواعد ضمن أدوات الاستفهام بل ضمن أدوات التحضيض.

ويشاركها في هذا المعنى أدوات أخرى مثل (ألا، لولا، لوما، وألا). و"ألا" هي في الحقيقة صورة أخرى لـ"هلّا" أبدلت فيها الهاء همزة، فمعنى "هلّا تلوت القرآن؟": لِمَ لم تقرأ القرآن؟، والمراد أنه كان ينبغي لك أن تقرأ ولكنك لم تفعل، وإذا تأمّلنا، نجد أنّ هذا المعنى يمكن أن يُستفاد من "لم لا تلوت القرآن؟"؛ فإلى جانب الاستفهام المحض، يمكن أن يفيد التنديم بقرينة السياق.

ولهذا السبب، ذهب بعض النحاة عند حديثهم عن "لولا" إلى أنّ من معانيها الاستفهام، يقول الهروي صاحب "الأزهية": "اعلم أنّ لها أربعة مواضع: تَكُونَ استفهامًا: بمعنى "هَلَّا"، كقولك: "لَوْلَا سَأَلْتَنَا؟" "لو لا أتيْتَنا"، قال الله عزّ وجلّ: "لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ"، وَقَوْلُهُ: " لَّوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا"،[1] وقد نقل ابن هشام في "مغني اللبيب" قاله الهروي وأكثرهم لا يذكره، والظاهر أنّ الأولى للعرض..... والظاهر أنّ المعنى على التوبيخ.[2]

وغرضنا من نقل كلام الهروي هو إقراره بـ"هلّا" كأداة استفهام، ونسبته معنى الاستفهام لـ"لولا". والسبب هو أنّ معنى العرض والتحضيض في "هلا" نشأ أصلًا من الاستفهام والنفي، وبناءً عليه، فإن "لم لا" إذا لم تكن للاستفهام المحض، أصبحت مرادفة لـ"هلا".

لهذا السبب، حين كتب أبو القاسم السهيلي: "فإن قيل: وهلّا كان..."، نقلها ابن القيم

[1] الأزهية، ص 166

[2] مغني اللبيب، ص 362

في "بدائع الفوائد": "فإن قيل: ولم لا جعلوا..." كما مرّ في الشاهد رقم 25، وسواء غيّر ابن القيم العبارة قصدًا أو نقلًا عن الذاكرة أو كان ذلك في النسخة التي بين يديه، فإنّ الجملتين لا تختلفان من حيث المعنى هنا.

وكذلك قول ابن زيد المفسر التابعي: "أفلا سلك الطريق..."، فإنّ "أفلا" هنا بمعنى "فهلّا"، لذا لا تشعر غرابتها، و"أفلا" مركبة من (همزة الاستفهام + فاء العطف + لا النافية)، ولما كان للاستفهام الصدارة إذا اجتمع مع حروف العطف (خلافاً لـ"هل")، قُدمت الهمزة. وإلا فإنّ تركيبي (أ + لا) و(هل + لا) سيان، والمعنى فيهما تولد من اقتران الاستفهام بالنفي.

خلاصة القول: إنّ "لم لا" من حيث المعنى مركبة كـ"هلا" من استفهام ونفي، وبما أنّ دخول "هلا" على الماضي شائع، فقد ذاع استخدام "لم لا" مع الماضي أيضًا، حتى استعمله ابن هشام وغيره من الأدباء، رغم أنّ قاعدتهم لا تجيز دخول "لا" النافية على الماضي بلا تكرار.

أما المثالان النثريان اللذان وردت فيهما "لا" مع الماضي بعد "مَن" أو "ما" الموصولتين، فلهما ما يسندهما من الشواهد الشعرية الثلاثة، ويمكن عدّ هذا الاستعمال من قبيل الاستعمال الأدبي، أمّا المثالان الأخيران اللذان دخلت فيهما "لا" بعد واو العطف، فيبدو أنهما من الشواذّ.

وخلاصة البحث: إذا لم يسبق الجملة فعل ماضٍ منفي بـ"ما" أو "لا"، أو فعل مضارع منفي بـ"لم"، فلا يجوز نفي الماضي (الذي ليس بمعنى المستقبل) بـ"لا" النافية. هذه هي القاعدة العامة، فلا يقال "لا قرأتُ" أو "لا سافرتُ" في جواب "هل سافرت؟"، ولكن هناك صور مستثناة.

الشواهد التي توصف بـ"الشاذّة" أو "القليلة" في الشعر الجاهلي، جاءت كلها فيها "لا" نافية للماضي بعد "أيّ" الاستفهامية. وهذا يشير إلى جواز نفي الماضي بـ"لا" دون

تكرار في هذه الصورة الخاصّة، لكن ينبغي البحث هل استمر هذا الاستعمال عند الشعراء والأدباء بعد العصر الجاهلي أم لا.

كثر استخدام الماضي بعد "لم لا" عند الأدباء والعلماء، ولا يمكن وصفه بالشذوذ أو القلة بحال. وعلاوة على ذلك، فإنّ استخدام "لا" مع الماضي بلا تكرار عند الشاعر القديم أبي السفاح بن بكير، ثم المتنبي وغيرهما، وكذا في كلام ابن الصيرفي والقفطي، لم يقع ابتداءً بل وقع بعد "مَن" أو "ما" الموصولتين. وهذه أيضًا صورة خاصة، وهي وإن كانت أقلّ ذيوعًا، إلا أنها جائزة، وأقصى ما يقال فيها إنها "استعمال أدبي" وليست استعمالاً عامًا.

قد يقال: إنّ العبرة في قواعد اللغة بما قرّره النحاة لا بأسلوبهم الشخصي؛ فإذا قال ابن هشام بوجوب التكرار، فالمعتبر قاعدته، واستعماله لـ"لا" بلا تكرار يُعد خطأً منه، وتُحتج قاعدته عليه لا أن تُنقض بزلته.

وهذا القول سديد؛ فكثيرًا ما يقرّر النحوي قاعدة صحيحة، لكن أسلوبه يتأثر بعصره، فيجري على لسانه أو قلمه ما سبق أن خطّأه دون وعي. غير أنّ الواقع هنا مختلف؛ إذ توجد شواهد متنوعة في كلام العرب القديم تخالف القاعدة العامة، وما نحن بصدده هو توسع أو تفريع على ذلك الاستعمال القديم. كما أنّ المقارنة هنا ليست بين "فصيح" و"غير فصيح" أو بين "صواب" و"لحن"، بل هي بين "فصيح" و"أفصح"، أو بين "كثير" و"قليل".

ولعلّ بعض القراء يعجب من هذا النفس الطويل في مناقشة جملة وردت في كتاب دراسي حديث؛ والجواب أنّ أيّ مسألة علمية، مهما بدت يسيرة، تستحقّ النظر بجدية واهتمام؛ فلا مكان للإهمال أو التساهل في طريق العلم، كما أنّ من أهداف هذا المقال إذكاء روح الشغف العلمي وذوق التحقيق لدى طلاب اللغة العربية، فإن تحقّق ذلك، فستكون سعادة الكاتب مضاعفة بأنّ جهده لم يذهب سدًى.